محاضرة / دراسات في فلسفة الرسم العالمي محاضرة ١٠ الكورس الاول

الفكر الفلسفي العدمي في الفن الحديث (الدادائية)

ان مفهوم التطور والتقدم* الذي رافق التطور الصناعي الجديد في الحضارة الغربية والتي كانت احدى اهم مقومات الحداثة في تلك المجتمعات فرضت حالة ضارية من التنافس بين الدول الصناعية الكبرى وايضاً تعاضم القوة العسكرية لتلك الدول ، وبذلك اصبحت الجيوش والآت الحرب، والتسليح، تمثل ضرورة ملحة واساسية لتلك الدول الصناعية ، كاحد نتائج الحالة التنافسية فيما بينها، فالحرب هنا اصبحت الوسيلة القوية في هذا العالم ، فكانت الحرب العالمية الأولى مثالاً للتنافس وفرض الهيمنة والقوى على المستعمرات.

وكان مخاض الحرب مؤلماً للغاية، محنة اقتصادية ونفسية وفكرية تركت بصماتها على الناجين، والذي نجوا من الموت لم ينجوا من الآثار النفسية، بعد أن رأوا بأم أعينهم تحول الإنسان إلى وحش كاسر، لقد " كانت نتأئج الحرب العالمية الأولى هي سقوط الأنسان الغربي في هوة مليئة بالفوضى والتناقض بعد ان تهشمت القيم والمثل العليا التي كان يتم الترويج لها دوماً مثل:العقل، الخير، الحق ...الخ"[١] .

وفي هذه الأجواء المشحونة بالتناقض وضياع القيم والتشكيك بكل الأشياء، شعر الإنسان بالقلق أولاً ثم اليأس والخوف من المجهول خاصة من (الموت) كمعطى من معطيات الحرب، راح الفرد الغربي يعلن عن أشمئزازه من نتائجها تلك الحرب بعد ان فقد الاتزان الاجتماعي واختل ميزان القيم وتغربت الذات وضاعت بين أنقاض المدن التي حطمتها عجلة الآلة العسكرية، وفي هذه الأجواء المضطربه راحت المحنة تجمع فنانين وشعراء وكتّاب، وقد أحاطتهم المرحلة بقلق واسع واعتقاد أعمق بفكرة محدودية الإنسان، والشعور بعبثية الوجود مما جعلهم أكثر اندفاعاً وتمرداً .

فظهرت حركة (الداداDada)** أو الدادائية، كحركة عبثية رفضية في مجال الأدب والفن في عواصم غربية مثل زيورخ، ونيويورك، وباريس، وكولونيا... وكان غرضها الاول الأنتقام من كل ما اصطلحت عليه الأنسانية من قيم فكرية او دينية او اخلاقية . كان بحثهم في الأهوال والمآسي، فضربوا القيم الجمالية جميعاً وعمدوا الى خلق (فن ينفض الفنAnti Art) ليناظر هذا الخراب والدمار والعمل على تقويض دعائم وأسس التقاليد الثقافية والنظم الأجتماعية والاخلاقية [٢].

لذلك اعتبر (تريستان تزارا) ان " بدايات الدادا لم تكن بدايات الفن بل الأشمئزاز من نتائج الحرب التي كرست افلاس عقلانية القرن التاسع عشر، والثقافة البرجوازية المرتبطة بها،فالدادا حاكت اسطورتها عندما حددت اهدافها وجعلت من نفسها حركة هدم وتدمير"[٣] .

لجأ الفنانون الدادائيون الى كل الوسائل التي يمكن ان تخطر ببالهم بهدف اثارة الرآي العام والأساءة الى الطبقة البرجوازية ومفاهيمها، لذلك كانت الدادا تسعى جاهدةً الى اثارة الفوضى بين مختلف النشاطات الثقافية، والى تقليص الحدود القائمة بين الفن والادب، حيث لجأت الى مايسمى " بـ(اللوحات البيانات) و(القصائد_ البيانات) و(القصائد المتزامنة) التي يرافقها ضجيج متعمد، كذلك لجأت في مجالات اخرى الى تقنية الالصاق والتركيب(الكولاج) مستخدمة مختلف المواد المعتبره غريبة عن الفن، بما فيها المبتذل والعادي جداً كالأسلاك الحديدية، وعلب الكبريت،والشعارات الصحفية، وصناديق القناني... كي تدخلها في سياق العمل الفني او تجعل منها بعد ان تعزلها عن واقعها الخاص، اعمالاً فنية قائمة بذاتها" [٤].

---

* تقدمProgress :كانت فكرة التقدم ، بوصفه ازدياد المعرفة دقة واحكاماً وتحسين نوعية الحياة، وهو بمثابة القوة الدافعة للحضارة الغربية طوال فترة امتدت الى ثلاثة قرون على الأقل. وفي اثناء القرن العشرين تبنت كل ثقافة على هذه الأرض تقريباً نفس هذه الفكرة، مع بعض الفروق ، اما (التطورEvolution) فهو التغيرات النوعية التي تستحدث او تنشأ في الكائنات وترتقي بها سواء في تركيبها او في سلوكها. ينظر: مارشال، جوردون: موسوعة علم الأجتماع، ج١،مصدر سابق،ص٤٤٥.

[١] - بريتون، فيليب:يوتوبيا الأتصال (أسطورة القرية الكونية) ،ترجمة:أياس حسن،دار الينابيع ،دمشق،٢٠٠٧،ص١٠٩.

** الداداDada : حركة فنية اسسها الشاعر (تريستان تزارا) في المانيا عام١٩١٢ في احدى مقاهي زيورخ الالمانية واللفظة(دادا) اخذت بصوره عفويه من القاموس وهي تعني حرفيا (حصان خشبي) ، تكونت من الفنانين (هانز آرب ومارسيل دوشامب وتريستيان تزارا) وغيرهم وعدت هذه الحركة حركة تدميرية ورافضة للقيم وتقاليد المجتمع البرجوازي الحديث. ينظر:التكريتي، جميل نصيف: المذاهب الأدبية، دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد،١٩٩٢،ص٣٢٢.

[٢] - نيومايز ، سارة : قصة الفن الحديث ، المصدر السابق ، ص١٨٢

[٣] - أمهز ، محمود : التيارات الفنية المعاصرة ، المصدر السابق ، ص٢٤٨.

[٤] - أمهز ، محمود : التيارات الفنية المعاصرة ، المصدر السابق ، ص٢٤٩.

وهذه الطرق ماهي الا وسيلة لمقاومة القيم البرجوازية والقيم الفنية والجمالية السائدة ، من خلال استخدام المهمل والمُهمّش والدفع به الى المركز، وكان (مارسيل دوشامب) اول من عبر عن هكذا اعمال عندما تخلى عن فرشاة الرسم واللوحة ويقدم اعماله (المصنوعات الجاهزة) كما في (الأشكال)، تطبيقاً عملياً لفكر البيان الدادائي الذي اعلن عام١٩١٨ بأن "حركة الدادا تكافح من اجل وسائط جديدة في التصوير " [١].

أن هذه الحركة الفني لها مرجعياته القوية مع طروحات (نيتشه) العدمية ، عاكسةً حالة التمرّد على كل ما هو منطقي، أضافة الى ان الدادائيون كانوا ايضاً فوضويين، وأحياناً مؤيدين للفاشية، إذ تبنّت الدادائية شعار(باكونين*) القائل بأن التخريب هو خلق أيضاً [٢].

(شكل)

دوشامب (حاملة القناني) ١٩١٤

(شكل)

دوشامب (النافورة) ١٩١٧

(شكل)

دوشامب (الذراع المكسور)١٩١٨

يرى الباحث ان ما طرحه (نيتشه) ضمن الفكر العدمي الذي سعى الى عبثيه الوجود وعدميته تجلت بشكل مباشر في الطروحات الفنية للحركة الدادائية ، فالدادئية عبرت عن نفسها عن طريق العدم والعبث ، وهذه الحركة كانت البذرة الأولى في فنون مابعد الحداثة التي تمسكت بهذه المفاهيم ووسعتها، ولم يقتصر نتاج الدادائيون على خروجهم عن السياق المتعارف في فن الرسم بأدخال الأشياء او ماسموه بـ(المصنوعات الجاهزة) والتي غيرت مجرى النتاج الفني السائد بل قدموا عروضاً ادائية غير مألوفة وشاذه في الوقت ذاته، " ففي عام١٩٢٠ قدم الدادئيون عرضاً على خشبة المسرح في صالة (غامو للعروض المسرحية) في باريس وحضر الناس للتفرج على المشهد الذي ابتدأ بقيام الدادائيون وقاموا بحلاقة رؤوسهم على خشبة المسرح وقف (بريتون) وقد سدد مسدسين إلى صدغيه و(إلوار) بزي راقصة باليه و (فرانكل) بمئزر، و(سابو) بكمي قميص، واعتمر كل الدادائيين إطارات أو أقماعاً على رؤوسهم ... ، وفي حفل آخر ، كانت الخلفية عبارة عن قبو لا أنوار فيه ، وهمدرة تتعالى من أرضية القبو ، وهازل آخر يختفي وراء خزانة ، راح يوزع الإهانات على القبور و(بريتون) يشعل عيدان ثقاب و (ديسانيه) كان يصيح بين آونةٍ وأخرى (إنها تمطرعلى الهامة) "[٣] . هذه العروض كانت مفتاحاً لما اتخذه الفنانون فيما بعد في فنون مابعد الحداثة

---

[١] - ال وادي، علي شناوة : استطيقيا المهمش في فن مابعد الحداثة، مؤسسة دار الصادق الثقافية ،دار صفاء للنشر والتوزيع،عمان،٢٠١١،ص١٢٣.

* ميشال باكونين (١٨١٤ – ١٨٧٦) : فيلسوف روسي ومن أبرز الفلاسفة الفوضويين ، وكان يشدد على ضرورة هدم دائم متأتٍ من صراع الأضداد.

[٢] - ال وادي، علي شناوة : استطيقيا المهمش في فن مابعد الحداثة، المصدرنفسه ،ص١٢٣.

[٣] - الشوك، علي : الدادائية بين الأمس واليوم، المؤسسة التجارية للطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بيروت ، بغداد ، د . ت ،ص٤٥-٤٦.